رحاب محسن الزراعي

ضوء الأمل

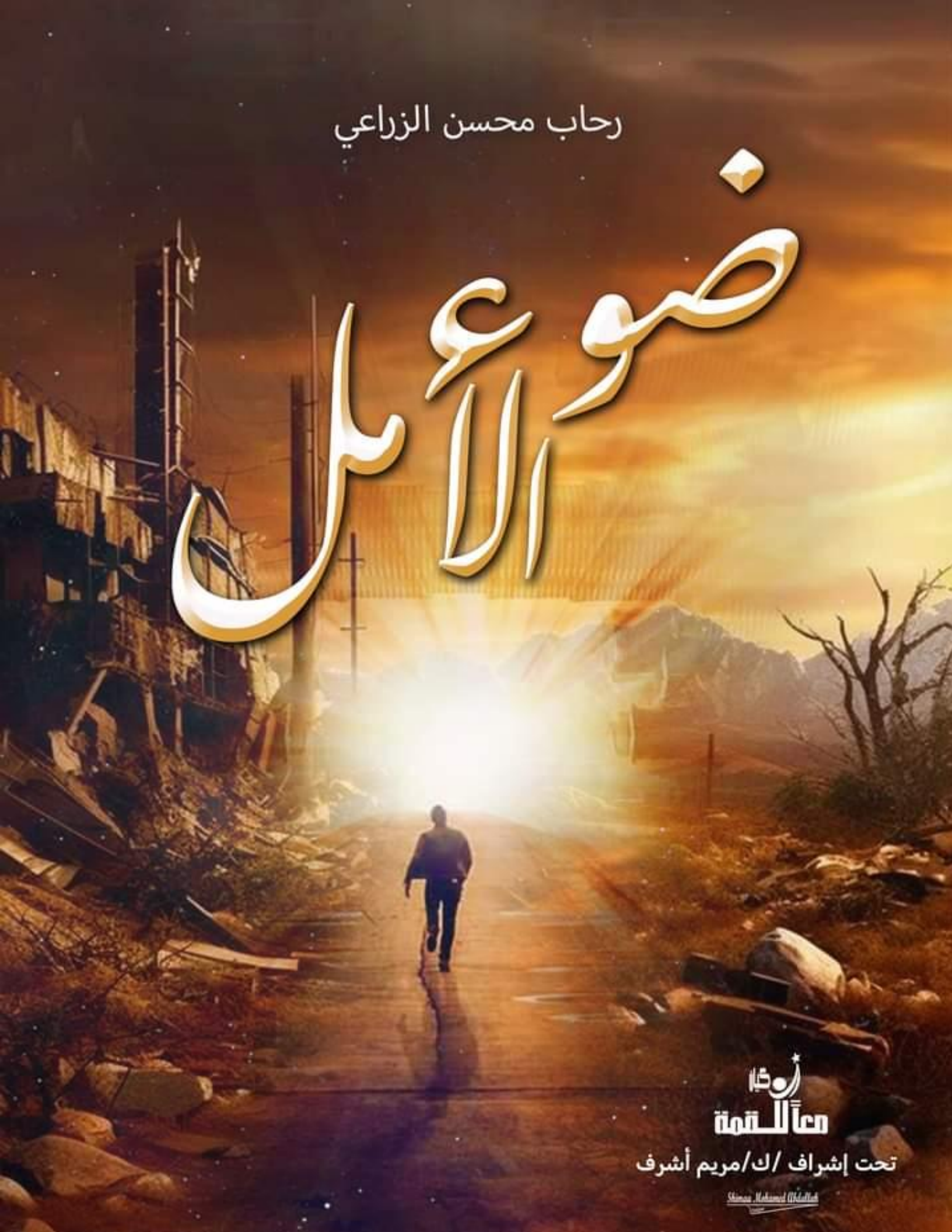

رؤيا
معاً للقمة
تحت إشراف /ك/مريم أشرف

قصة قصيرة بعنوان: **ضوء الأمل**

تأليف: رحاب محسن

مراجعة وتحسين سرد: مريم أشرف

غلاف: شيماء محمد

تدقيق: أسامة الغنام

تنسيق: كيرلس نادي

إشراف/ كيان معًا للقـمة

عندما تمتزج الدموعُ الحزينةُ مع الابتسامةِ المرهقة، وتنهارُ الروحُ من شِدةِ الأوجاع، بينما يبقى الجسدُ صامدًا يتعرض لتياراتِ الهواءِ الباردةِ وشمسِ الحياةِ الحارقة، يعيشُ الإنسانُ تحت وطأة الأحزان وثقل الأيام والليالي، بعد أن كان يعيشُ في الفرح والهناء.

شعور الفقد مؤلمٌ، ولكن الأكثر إيلامًا من ذلك هو أن يكون فقدانك في أحبائك وأقربَ الناسِ إليكَ، الذين كانوا يحيطونك بالدفء والطمأنينة.

ففي ليلةٍ مظلمة شديدة البرودة، وجد جود وجواد –اللذان يبلغان من العمرِ اثنا عشر عامًا– أنفسهم في العراء، ترافقهما أختهم الصغيرة آية التي تبلغ من العمر ستة أعوام.

تشارك أخويها التوأمين حياة الشقاء في رحلة جديدة نحو المجهول، هذه هي أقدار الله، ففي لحظات قليلة، انقلبت حياتهم رأسًا على عقب، قبل ساعات قليلة، كانوا يجلسون برفقة والديهم يتبادلون الضحكات والأماني، وها هم الآن مشردين وأنفسهم منهكة، يمسك كل منهما بذراع الآخر بخوف من الوقوع، ويبذل كل منهما جهده للنجاة من عدو غامض وبغيض أخذ روح والديهم وشقيقهم الأكبر في لحظة غير متوقعة.

بعد دقائق قليلة، توقف جود أخيرًا في محاولة لالتقاط أنفاسه المتعبة من شدة الركض، حانت منه التفاتة للخلف وتذكر فجأة أنه فقد ثلاثة من أحبائه في هذا الهدوء الساكن وبدون وداع. سقط جاثيًا على ركبتيه وبدأ في تحرير دموعٍ وآهاتٍ مكبوتةٍ لم يتيسر له أن يعبر عنها من قبل.

كان يبكي بحرقة لو وزعت تلك الدموع على سكان الأرض، لكفتهم جميعًا.

امتدت يد جواد ليشد بكتف أخيه ليشاركه الآلم والدموع.

ارتمت آية أيضًا في حضن أخويها، مشاركةً معهم نفس الألم، وأخذوا يشكون معًا ظلم الحياة وغدرها.

تحدث جواد من بين سيل الدموع المنهمرة في محاولة لمواساة أخيه :

– جود ليس الآن يا أخي، تمالك نفسك وكن قويا أرجوك، من أجلي ومن أجل أختنا، لا تسقط فنسقط معك أَفَلَمْ تكن أنت أقوانا؟ ومن ساعدنا لنخرج من بين الركام؟ ترى أين ذهبت شجاعتك يا أخي.

رد جود بيأس كبير :

–شجاعة؟! وأي شجاعة بقيت لي يا أخي وقد تُرِكنَا في الوسط هكذا كشجرة قُطِعَتْ جذورها. أي حياة تنتظرنا؟ وقد بقيت أمي وأبي وأخي هناك كبقايا رماد، كيف لقلبي وروحي أن تحتمل ذلك المشهد كيف لعقلي أن يستوعب أنني وفي سبيل النجاة بكم وبنفسي نسيت والدي تحت ركام منزلنا دون محاولة إنقاذهم.

تحدث جواد والغصة تكاد تخنقه:

– جود كفاك لومًا لنفسك، كلانا يعلم أن لا نجاة لهم.

لقد نُسِفَ الطابقُ الذي يجلسون به تماما، ولم يكن هناك فرصة لأي حياة بعد ذلك الصاروخ الثاني الذي قُذِفَ عقب خروجنا، ولو تأخرنا لدقيقة واحدة فقط، لكنا هناك معهم الآن.

أردف جود بغضب بالغ:

– ليتنا كنا معهم، ليتنا ما خرجنا من هُناك وكنا معهم في الموت كما كانوا معنا في الحياة، أنا لا أستطيع تحمل هذا الآلم، لا أستطيع، أنا أضعفُ من أن أحتملَ ذلك الحزن.

قال جواد وهو يحاول تهدئة أخيه:

– لكننا لا نزال أحياءً، يا أخي، تأكد أنه لو كانت أمي ترانا الآن، لكانت سعيدة بنجاتنا. ولو خُيِّرَت بين حياتها وحياتنا نحن، لاختارت الحياة لنا.

قالت آية بخوف والدموع محتلة عيناها:

– أخي، المكان هنا مظلم وبارد. لماذا نحن في الخارج؟ دعونا نعود للبيت، أنا خائفة جداً.

التفت جود وجواد يمينًا ويساراً، وبدا أنهم لم يدركوا حتى الآن أنهم في مكان موحش. عندما غادروا بسرعة تحت تأثير الصدمة، لا يعرفون إلى أين تؤدي بهم

أقدامهم وإلى أين يذهبون، كانوا لا يريدون إلا النجاة بأرواحهم، وها هم الآن أمام مغامرة جديدة في محاولة للخروج من الغابة الكبيرة المظلمة، التي تضم أشجارًا عالية، ما القوة التي يجب أن يتمتع بها هؤلاء الأطفال الثلاثة لمواجهة الحياة في ظل هذه الأوضاع المروعة؟

هم الآن في حالة تشرد وهروب وضياع في ساعات قليلة، كيف يمكن لقلوبهم الصغيرة أن تحتمل كل ذلك؟

أمسك الأَخَوانِ بيد بعضهما البعض لينهضا من على الأرض، ليحيطا أختهما الصغيرة بأجسادهما، باحثين عن مكان يمنحهم الدفء، ريثما تشرق شمس النهار. تمضي الدقائق ببطءٍ شديد، وهم يسيرون في الظلام الدامس، تحاصرهما الأشجار الكثيفة. وكاد الأمل أن ينقطع عندهم، مع عدم وجود فرصة للنجاة. جلست آية وهي تبكي، فاشتدّ التعب عليها، وأصبحت غير قادرة على السير.

التفت جواد لها وقال بلطف:

- أختي الحبيبة، ليس الآن، تحملي قليلاً، سنتمكن من الخروج من هنا.

ردت أية بصوتٍ مكتومٍ بالبكاء:

- لا أستطيع يا أخي، قدماي تؤلماني، أريد أن أنام، أرغب في العودة إلى منزلنا، ضعوني بأمان في أحضان أمي، أرجوكم.

أردف جواد بأنفاسٍ متقطعة، هو الآخر مستسلمٌ، وقد اجتاحه التعب:

– كيف دخلنا إلى هنا؟ كيف لم ننتبه إلى أنّنا نركض نحو الغابة؟ إن المكان هنا مهجور. يبدو أننا نجونا من الموت تحت أنقاض منزلنا ولكن سنموت هنا دون أن يشعر بنا أحد.

وفي خضم يأسهما، فإذا بضوء خافت يُتسرب من بين الأشجار، التي تتحرك بالرياح. لم يفهم الأخوة الأمر، وظهر لهم كحُلْمٍ سعيد، لكنه كان حقيقيًا.

لم يبقَ لهم سوى السير نحو مصدر ذلك الضوء، بحثًا عن النجاة من الرعب الذي يعتري قلوبهم الصغيرة.

بعد لحظات، وصلوا إلى المكان، وكانت المفاجأة في انتظارهم.

بابٌ كبيرٌ من الخشب المتهالك، يُسَربُ من خلال ثقوبِه الصغيرةِ ضوءٌ ذهبيٌ، دقوا الباب بسرعةٍ وتوالت لديهم جميعًا السعادة؛ لأنهم وجدوا طوق النجاة أخيرًا.

وخلف ذلك الباب تجلس عجوزٌ مسنةٌ، في وحدةٍ شديدةٍ، يرافقها في وحدتها مذياع قديم ينبض بالألحان القديمة.

بعد لحظات، استقبلت العجوز الأطفال ورحبت بهم ودعتهم للدخول .

كانت الدهشة تكسو معالم وجهها، فكيف لأطفال صغار أن يكونوا في الخارج في ذلك الوقت المتأخر من الليل؟ لا يبدو عليهم أنهم مشردون، ولكن لما هم في تلك الحالة المزرية؟

قررت العجوز أن تأجل كل اسئلتها ريثما يستعيد الصغار أنفاسهم.

بعد مضي بضعة أيام اعتادت الجدة العجوز على وجود الأطفال في منزلها.

شعرت وكأنهم العوض الجميل من الله لها، والسراج الذي يضيء وحدتها، وفي تلك المدة القصيرة تمكنت الجدة من معرفة حكايتهم الحزينة وكيف أن القدر ابتلاهم في فقد أحبائهم وملاذهم الآمن في الحياة ،وأن حالهم حال الكثيرين في وطن اتسع لأبنائه أمواتا بينما لم يتسع لهم وهم أحياء.

في أحد الأيام وبينما هم يجلسون على طعام الإفطار تفاجأت الجدة بسؤال جواد لها عن سر وحدتها في بيت صغير في غابة كبيرة.

لم يكن حال الجدة بأفضل منهم، فهي الأخرى تحمل في داخلها الكثير من الحكايات لمؤلمة.

قالت الجدة وصوت الحزن يكسرها وصورة الماضي تلوح نصب عينيها :

-أنا ياصغاري لا أحب تذكر الماضي وخيباتي المتكررة به، ولكن بما أنكم قد سألتموني سأخبركم بكل شيء لعلكم لا تقعون فيما وقعت أنا فيه، فحياتنا ليست سوى اختياراتنا. لقد كنت في الماضي فتاة جميلة ذات حسب ونسب، كانت لدي حياة

تجسد الرفاهية والثراء والدي يملك الكثير من الأموال كنتُ أنا وحيدته وقرة عينه .وما لا يعلمه أبي هو أن قلبي ينبض بحب الشاب العامل في البستان، تفاجأت بعدما اكتشفت أنه يشعر بالمثل تجاهي، بدأت حينها قصتنا، قصة حبنا التي لم تكن تمر مجرد مرور العابرين. خاصة عندما تقدم الشاب لخطبتي، أثار ذلك جنون وغضب أبي الذي لم يدع أي فرصة إلا وحاول فيها التخلص من الشاب، وتحت تأثير وتسلط أبي، قررنا في لحظة من الجنون ترك كل شيء والهروب بعيدًا.

تزوجنا ودخلت هنا فى هذا المنزل كعروس، بعد ان أكمل تجهيزه على عجل، عشت في هذا المكان أجمل أيام عمري، كنت سعيدة جدًا وأشعر أن العالم بأكمله ملك يدي، كان زوجي رجلاً طيبا يملك قلبا كبيرًا، وعلى الرغم من صعوبة وضعنا المادي، إلا أنه لم يتركني أحتاج أي شيء، بعد شهرين اكتشفت انني حامل وكم كانت سعادتنا عظيمة لذلك.

إلا أن سعادتي لم تدم طويلا ففي الشهر السابع من حملي مرض زوجي مرضًا شديدًا ولأن ظروفي المادية كانت سيئة للغاية؛ مات زوجي دون قدرتي على أخذه للمشفى، شَكلَ موته صدمة كبيرة لي .

بعد وفاته حاولت الوصول لأهلي فمن رحلت إليه وبعت الدنيا لأجله تركني بمفردي أحمل روحين في جسدي دون معيل، لكن الأخبار السيئة لم تنتهِ وهنا كانت الصدمة الثانية التي كسرت ظهري لقد مات والدي مات قهرًا وخجلاً مما فعلت

وعلمتُ أيضا أن والدتي رحلت لخارج البلاد برفقة عائلتها فقلبها لم يحتمل البقاء في منزل كان ذات يوم يتزين بالضحكات.

لقد رحلت أمي بالغربة ورحل أبي بالموت و بقيت أنا هنا أدفع ثمن لحظة تهور واندفاع، لم تستطيع الأموال التي تركت لي بعد أن هجرها أصحابها التخفيف عن أوجاع كانت أكبر من أن يتحملها قلبي.

فروحي لم تستطع تحمل ذلك الألم والندم، وبسبب ذلك ولدت ولادة مبكرة راح ضحيتها أطفالي الذين أتوا للحياة باكرا مما تسبب لهم في مضاعفات خطيرة أدت إلى وفاتهم بعد أسبوع من الولادة وهنا شعرت أن لا قيمة لوجودي في الحياة، لقد رحل أحبتي بعيدا وانطفأت مصابيحي.

خلال تلك السنوات الخمسة والأربعين التي قضيتها هنا، كنت أعيش كجسدٍ بلا روح. وفي كل يوم وليلة، كنت أحضّر نفسي للقاء بأحبتي. هنا في هذا المكان دفنتُ شبابي ، وظلّت رائحة المحبين وذكرياتهم التي تبقت تشعرني بوجودهم.

فعلًا، أحبائي، الحياة هي مجرد خيارات تلو الآخرى قد كُتبَ علينا أن نختارها.

وفي هذه الخيارات تأتي اختباراتنا التي قد تكون صعبة أحيانًا، ويصعب علينا تحمّلها.

لكن أحيانا، تكون قاسية ويصعب علينا تحملها وأحيانا آخرى نعيش تلك الاختبارات بكل تفاصيلها من دون أن نفكر في الهروب.

تظل أرواحنا صامدة وثابتة، رغم الألم والوجع.

في جميع الأحوال، نشعر برضا النفوس عن القدر المكتوب لنا. فالله لم يخلق الألم من دون أن يوفّر لنا الأمل للشفاء. في النهاية، يجب أن نعلم أننا لسنا وحدنا من يعاني ويتألم. فالجميع يشرب من كأس المصائب والمرارة قطرة قطرة.

أعزائي، ما يجب أن تستنتجوه من كلامي هو أن الحياة شبيهة بالقطار في كل محطة جديدة، يجب أن ينزل أحدهم ليفسح المجال لركاب آخرين في الصعود، وهكذا حتى المحطة الأخيرة، لن يتوقف القطار للموت أو حياة أحد، ستمضي الأيام كما هو مكتوب لها، بغض النظر عن كل شيء،

ستشفى جروحكم العميقة، ولن يبقى منها إلا الأثر، مهما طال بكم الوقت

فالموت لا يعني نهاية الحياة، وها أنا أمامكم كمثال حي، لم يسبق لي أن غادرتُ مكاني هذا منذُ زمن.

أجلس بصمت حزين على رصيف الذاكريات، أتأمل وجوه العابرين، بانتظار موعد رحيلي، وكلي شوق للقاء بأحبتي.

لطالما كنت أردد في نفسي أن الله لا يبتلينا بحزن لا نستطيع تحمله، وإن فعل فحتما يُخبئ لنا شيئا يعوضنا عن ما أصابنا.

قد يهديكم الله السعادة على هيئة أشخاص يدخلون حياتكم دون تخطيط مسبق.

أحبابي، عندما طرقتم بابي في ذلك المساء، شيئاً ما تحرك في داخلي فرحة غريبة لم أجد لها تفسيرًا.

ربما شعور الوحدة المخيف جعلني أفرح بكل عابر سبيل يطرق بابي، لكنني أدركت فيما بعد أن شعوري تجاهكم لم يكن مجرد شعور عابر. لأنكم ما كنتم إلا هدية من الله لي لتكونوا بجانبي في آخر أيام عمري، وأكون أنا العوض الجميل الذي يسندكم ويقف بجانبكم فيما تبقى لي من العمر.

أدركت تماماً أنكم ستكبرون وسترحلون بعيدًا؛ سيأتي اليوم الذي تحدثون أبناءكم عن حياتكم وبطولاتكم وعن وطنكم الذي سرق أحلامكم.

سيكون ما عشتموه اليوم مجرد ذكرى عابرة في قصتكم، وسأكون أنا مجرد سطر في تلك القصة.

فربما كل نهاية بداية لحياة أخرى .

تمت بحمد الله،،